

الفرائض، أجره مجرى الهدية، وقالوا قد أمر بقبولها ونُذِبَ إلى التهادى للتألف والتحبب. وقالوا ولا نزاحم المساكين في حقوقهم، ولعلنا لا نكمل أوصافهم ونخاف أن لا يوجد فينا ما شرط الله عز وجل لواجبه، ولا نضعه في حقيقة موضعه، أو لا نحتاط لمن يسقط عنه الواجب به، فالتطوع أوسع علينا، ومع هذا فإنهم يشهدون النعمة من الله تعالى، وأن الدين إنما هو لله عز وجل كما قال «إلا لله الدين الخالص»، وأنهم مستعملون بأنفسهم من حيث كانوا مُنْعَمًا عليهم لا منعمين على أنفسهم. وهذه طريقة بعض أهل المعرفة، ومن ذهب إلى هذا إبراهيم الخواص وأبو القاسم الجنيد ومن وافقهما. والأمر في ذلك عندي أن من لم يأخذ من كل إنسان ولا في كل أوان، ولم يقبل إلا عند الحاجة وما لا بد له منه، ثم قام بحكم الله تعالى في الواجب وحكمه في التطوع، أن الحالين يتقاربان، لأن الواجب أمر الله تبارك وتعالى فيه حكم، والتطوع نُدْبٌ، وله عز وجل فيه حكم، فعلى العبد أن ينظر لدينه ويحتاط لأخيه فيعمل بما يوجب الوقت من الحكم من أيهما كان، فسواء ذلك، ولا ينظر بظلمة النفس في هوى الحظ، ففي ذلك سلامته.

الفصل الحادى والأربعون

في كتاب حكم المسافر والمقاصد في الأسفار

فإن سنع لهذا المرید سفرٌ ففي الحديث البلاد بلاد الله عز وجل، والخلق عباده، فحيث ما وجدت رزقاً فاقم واحمد الله عز وجل. والخبر المشهور سافروا تقنموا، فغنيمة أبناء الآخرة ربح تجارة الآخرة. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها»، وقال عز وجل «قل سيروا في الأرض فانظروا»، وقال تعالى «وفي الأرض آيات للموقنين». وقال جل وعلا «وفي أنفسكم أفلا تبصرون»، فمن جعلت آياته في نفسه تبصر ففطن، ومن جعلت له الآيات في الآفاق سرّب وسرّى، وكذلك قال الله عز وجل «وإنكم لتصرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون»، ومثله «وكأين من آية في السموات والأرض يرمون عليها وهم عنها معرضون». فمن سار فكانت له بصيرة اعتبر وعقل، ومن مرّ على الآيات فنظر إليها تذكّر وأقبل. وقد أمر الله عز وجل بالمشى في مناكب بساطه، والاكل من رزقه بعد إظهار نعمته بتذليل مهاده، فقال سبحانه وتعالى «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه»، قيل في أسواقها، وقيل قرأها، وقيل جبالها لأنها أعاليها.

وكان بشور الحافى يقول يامعشر القرءاء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا كثر مقامه فى موضع تغير. وقيل إنما سُمى سَفْرًا لأنه يُسفر عن أخلاق النفس، وأيضاً يسفر عن آيات الله سبحانه وقَدْرِهِ وحُكْمِهِ فى أرضه. فإذا عزم على السفر فليصل ركعتى الاستخارة، وليعقد التوكل على الله عز وجل، فكفى ناظرًا وساكنًا إليه تبارك وتعالى، واثقا به ومعتمدا عليه، مستورا حاله، راضيا عنه عز وجل فى تقلبه ومثواه. وليُنوِّ فى سفره الاعتبار بالآثار، والنظر إلى الآيات بالاستبصار، والابتغاء من فضل الله سبحانه فيما ندبه إليه من الأسباب. ويقال إن الله تبارك وتعالى يعطى المسافرين كل واحد على نحو نيته، فمن كانت نيته طلب الدنيا أُعطى منها ونَقَص من آخرته أضعافه، وفُرِّق عليه همّه، وكثُر بالحرص والرغبة شغله. ومن كانت نيته طلب الآخرة وأهلها، أُعطى من البصيرة والفتنة، وفُتِّح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته، وجُمع له همّه، ومَلِك من الدنيا بالقناعة والزهد شغله. فلتكن نية هذا المسافر استصلاح قلبه، ورياضة نفسه، واستكشاف حاله، وامتحان أوصافه، لأن النفس إنما أظهرت الإذعان والانقياد فى الحَضْر، وربما استكانت وأجابت فى السفر، فإذا وقعت عليها أثقال الأسفار، وخرجت عن معتاد ذلك المعيار، فأسفرت حقيقتها، وانكشفت دواعيها، فيكون المسافر فى علومه وبصائره يعرف بها خفايا نفسه ومكانها، ويكون هذا من حَبء الأرض الذى يخرج الله عز وجل لمحبيه متى شاء، كما قال جل وعلا «يُخرج الغيب فى السموات والأرض». فإن خرج سائحا فى طلب العلم فقد جاء ذلك فى تفسير قوله عز وجل «السائحون»، قيل فى طلب العلم. وقيل هم طلبة العلم. وقد كان سعيد بن المسيب يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد. وقال الشعبي لو سافر رجل من الشام الى أقصى اليمن فى كلمة تدل على هدى، مارأيت أن سفره كان ضائعا. ورجل جابر بن عبد الله من المدينة وغيره من الصحابة إلى مصر، فساروا شهرا فى حديث بلغه عن عبد الله بن أنيس الأنصارى، يحدّثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه. ومن سافر فى طلب العلم من عهد الصحابة إلى يومنا هذا أكثر من أن يُحصى. وفى الخبر من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله عز وجل حتى يرجع. وفى خبر آخر من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله عز وجل له طريقا إلى الجنة.

ويقال إن النفقة فى العلم كالنفقة فى سبيل الله، الدرهم بسبعمائة. وإن سافر فى لقاء الصالحين، فقد جاء فى الأثر كانوا يحجون للقاء، والحج من أفضل الأسفار، فجعلوه سببا للقاء الأخيار، فإن نوى القرب من الأمصار طمعا فى سلامة دينه، وبعداً من تعلق النفس بما

فى الحَضْر من حظ دنياه فحسَن. وربما خرج طلباً للخمول والذلة خشية الفتنة بالشهرة، ورجاء صلاح قلبه واستقامة حاله فى البعد من الناس، ورياضة بالتفرق والتوحد إلى أن يقوى يقينه ويطمئن قلبه، فيستوى عنده الحضر والسفر، ويعتدل عنده وجود الخلق وعدمهم بإسقاط الاهتمام بهم. وقد قال الثورى هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف بالمشهورين؟ وهذا زمان رجل ينتقل من بلدٍ إلى بلد كلما عُرف فى موضع تحوّل إلى غيره. وقال أبو نعيم رأيت الثورى وقد علّق قلته بيده ووضع جرابه على ظهره، فقلت له إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال له قد بلغنى عن قرية فيها رُخص فأتنا أريد أن أقيم بها فقلت وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ قال نعم، إذا بلغك عن قرية فيها رُخص فأتهم بها، فإنه أسلم لدينك وأقلّ لهمك. وقد كان سرى السقطى يقول للصوفية إذا خرج الشتاء ودخل أذار وأورقت الأشجار طاب الانتشار.

ومن أفضل الأسفار ما خُرج له فى سبيل الله عز وجل من الجهاد، والحج، والرباط، وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم، ثم زيارة أصحابه، محتسباً بذلك ما عند الله عز وجل. والسفر فى زيارة الأخ فى الله عز وجل مستحب مندوب إليه، وروينا ذلك فى خبر عن بعض أهل البيت عليهم السلام. وقيل مكتوب فى القوراة سر ميلاً عدّ مريضاً، سر ميلين شيع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال رزأ فى الله تعالى. وإن سافر إلى بعض الثغور ناوياً رباط أربعين يوماً أو ثلاثة أيام فحسَن. وإن قصد عبادان فرباط فيها ثلاثاً فقد أتابها ثلاثمائة من العلماء والعباد للرباط فيها ما يجلب وصفه. وروى عن طلى عليه السلام أنه سأل رجلاً بالبصرة أن يرباط بعبادان ثلاثاً ويشاركه فى صحبتته. وقال بعض العارفين كوشفت بالأمصار فرأيت الثغور كلها تسجد لعبادان.

ومن قصد فى سفره أحد المساجد الثلاثة المنسوب إليها لشدة الرحال فهو أفضل، وأولها المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد بيت المقدس، فيقال من جمع الصلاة فى هذه المساجد الثلاثة من سنته غُفرت له ذنوبه كلها، ومن أهل حج أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وخرج ابن همر من المدينة قاصداً إلى بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس، ثم كرّ راجعاً من الغد إلى المدينة. وسأل سليمان عليه السلام ربّه تعالى أن من قصد هذا المسجد لا يهيمه إلا الصلاة فيه، أن لا تصرف نظرك عنه مادام مقيماً فيه حتى يخرج منه، وأن تُخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فأعطاه الله تعالى ذلك. وأما فضائل المسجدين فى الحرمين، حرّم الله عز وجل، وحرّم رسوله صلى الله عليه وسلم، فأكثر من أن نذكرها. وإن سافر طلباً للحلال وهو

يأمن طُعْمَةُ الحرام، فذاتك له قُربتان، وقد فعله صالحو السلف في كل زمان.

وليكن العبد في سفره مراعيّاً لهمّة حافظاً لقلبه من التشبّت والطمع في الخلق والتعرّض للمسئلة، فإن لم يكن ذا معلوم معهود كان معلومه العلامّ الوبود، وكان طريقه إليه صدق التوكل، وزاده في طريقه حُسن التقوى له بصحة الإياس من الناس، وعليه حينئذ الصبر على بلائه، والرضا بتصريفه في قضائه، والشكر على لطائف نعمائه من منع أو عطاء أو شدة أو رخاء، لأنه في يد الوكيل يقبّبه كيف يشاء. والتوكل عند المتوكلين هو في الصبر للصبور، وتسليم الحكم للحاكم، ومنه قوله تعالى «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون»، وقوله «إنّ الحكم إلا لله عليه توكلت». وقال رجل لبشر بن الحارث إنى أريد سفراً ولكنى منعى أنه ليس عندى شيء. فقال لا يمنعك العدم من سفرك. واخرج لقصده فإن لم يعطك ما لغيرك لم يمنعك مالك. وكان إبراهيم الخواص يقول كفّ فارغ وقلب طيب ومُرّ حيث شئت. ومن طرقته فاقة أو رمقتة حاجة لم يخرج من التوكل أن يسأل إذا عدم القوة والصبر، لأنه حينئذ يسأل لربه لا لنفسه، يحركه العلم لا الهوى لإقامة فرضه وحفظ عقله الذي هو مكان تكليفه.

وحدثونا عن أبي جعفر الحدّاد وكان شيخاً للجنيد له علم في التوكل وحال من الزهد، كان يقتات بخروجه بين العشائين، فيسأل من باب أو بابين، فيكون ذلك معلومه إلى بعض حاجاته من يوم أو يومين، ولم يعب هذا عليه أحد من الخصوص. وقد رأى بعض الناس رجلاً من الصوفية دُفع إليه كيس فيه مئون دراهم في أول النهار ففرّقه كلّه، ثم سأل قوتاً في يده بعد عشاء الآخرة، فماتبه على ذلك، وقال دُفع إليك شيء أخرجه كله فلو تركت منه لعشائك شيئاً، فقال ما ظننت أنى أعيش إلى المساء، ولو علمت ذلك فعلت. وكان هذا زاهداً قصير الأمل. إلا أن السؤال للمتوكل عند الخواص يخرج من التوكل. وقد كان سهل يقول المتوكل لا يسأل ولا يرد ولا يحتكر، وليس يخرج عندي من التوكل المسألة عند الفاقة بل عدم الصبر والقوة، فقد ذنك وجود الإذن من الله له في السؤال إذا كان ناظراً إلى تصريف الوكيل في كل حال، ولأن الولي الحميد يقبّبه وليه في جميع الأحوال. ألم تر إلى إمامي أهل الظاهر والكتب وأهل الباطن والقلوب، استطعما أهلها، لأن المسلم يستحق على إخوانه سدّ جوعته لحُرمة الإسلام.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الضيف واجبة. وقال عليه الصلاة والسلام الضيافة حق. وفي الخبر ولك أن تأخذ من ماله مقدار ليلة. وفي الحديث أيماً أهل عرصة أو

قرية بات فيهم رجل من المسلمين جائعاً فقد برئت منهم الذمة. وكان الثوري يسأل في البوادي من الحجاز إلى صنعاء اليمن، فقال كنت أذكرهم حديث عبد الله هذا في الضيافة، قال فيخرجون إليّ طعاماً فاكل شبعي وأترك ما بقى. والمسافر هو ابن السبيل الذي أوجب الله حقّه في الاموال، لأن السبيل هو الطريق، وراكبها ابنها، لأنه صاحب طريق وسالكه. وليس عليه أيضاً في الثواء عند أخيه المسلم ثلاثة أيام شيء، لأنه مقيم على ما أبيع له. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الضيافة ثلاثة فما زاد فهو صدقة فلا يقمين فوق ثلاث فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال ولا يقم فوق ثلاث، فيخوِّجه أن يضيق عليه. وتؤويل قوله عندي فما زاد فهو صدقة أى مكروه لا منسوب إليه ولا مأمور به. فإن اختار الصدقة ولم ينزّه نفسه عنها فهو أعلم، أى وما كان في الثلاث فهو حق له وواجب على مضيفه، فإن سألوه الإقامة فوق ثلاث، أو علم أنهم يحبون الإقامة فلا بأس بذلك، وقد تؤول بعض الصوفية قول النبي صلى الله عليه وسلم فما زاد فوق ثلاث فهو صدقة، أنه صدقة على أصحاب المنزل من الضيف، تصدق عليهم بإقامته لأنه مثوبة لهم. ولا يعجنى هذا التأويل.

ويحافظ على صلاته في أوقاتها بحسن طهارة وجميل أداء، ويحفظ قلبه أن يتشتت، فإن السفر قد يشتت هم المرید، ويجمع هم العارفين، ويشغل قلوب الضعفاء، ويروح قلوب الأقوياء، وهو محنة وكشف لأخلاق العبد. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للرجل الذى زكى عنده رجلاً لما سأل عنه ليقبل شهادته، فقال له هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق، فقال لا، قال ما أراك تعرفه. وعن بعض السلف إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر فلا تشكروا فى صلاحه إذ ذاك، لأن السفر يسيء الأخلاق، ويكثر الضجر، ويخرج مكامن النفس من الشح والشره. وكل من صلحت صحبتته فى السفر صلحت صحبتته فى الحضر. وليس كل من صحب فى الحضر صلح أن يصحب فى السفر. وقال بعض السلف ثلاثة لا يلامون على الضجر، الصائم والمرضى والمسافر. ولا ينبغي أن يفارقه من الأسباب أربعة، الركوة والحبل والإبرة بخيوطها والمقراض. وكان الخواص من المتوكلين ولم تكن هذه الأربعة تفارقه، وكان يقول ليست من الدنيا. وبعض الصوفية كان يقول إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل ذلك على نقصان دينه. وكان جماعة من أرباب القلوب وأهل المعاينة بالأحوال إذا استوطنت نفوسهم مصر، أو سكنت إلى موضع، عملوا فى الغربة لرفع العادة إيثاراً للقلّة والذلة. وقالوا لا يخلو المؤمن من قلّة أو علة أو ذلة. وكانوا إذا خافوا الاستشراف إلى الخلق خرجوا فى الأسفار لقطع ذلك وحسمه من الأذكار. وقد كان الخواص لا يقيم فى

بلد أكثر من أربعين يوماً، ويرى أن ذلك علة في توكله، فيعمل في اختبار نفسه وكشف حاله. وعلى المسافر من أهل القلوب أن يفرق بين سكون القلب إلى الوطن والسفر، وبين سكون النفس إليهما، فإن ذلك قد يلتبس فيحسب من لا بصيرة له ولا تفتيش لحاله ولا صدق في أحواله، أن سكون النفس هو سكون القلب، فينقص بذلك ولا يفتن لتقصانه، فإن كان قلبه يسكن إلى أحدهما وفيه صلاح دينه وعمارة آخرته ومحبة ربه فهذا سكون القلب، لأنه يسكن إلى أخلاق الإيمان وما ورد العلم به، وإن كانت نفسه تسكن إلى أحدهما مما فيه عاجل حظوظ وعمارة دنياه وموافقة هواه فهذا سكون نفس، لأنها تسكن إلى معاني الهوى، فليتحول من الوطن إلى الغربية، وليرجع من الغربية إلى المصر. ومن كان في سفر على غير هذا النعت من التفقد لحاله وحسن القيام بأحكامه فهو على هوى وفتنة، وسفره بلاءٌ عليه ومحنة. وفصل الخطاب أن من لم يكن له في سفره حالٌ يشغله، وهمُّ يجمعه، ووقتٌ يحبس به، ومأوى يُظله، ومسكن يؤنسه، وزاد من باطنه، وعلم من عالمه، فإن الحضر أرفق لحاله وأصلح لقلبه وأسكن لنفسه من السفر، لأنه يكون في السفر مشتت السرِّ مفرقَ الهمِّ، تارةً بوجود معلوم يخاف عليه، ومرةً بفقد معتاد يحنُّ إليه، ومرةً باستشرافٍ إلى خلقٍ يطعم فيه، ومرةً يضعفُ قلبه مع العدم، وتارةً يقوى بالاستطلاع إلى البشر، ومرةً يفزع بفقد ما عنده قد حضر، فمثل هذا يكون في السفر نقصان ما ادعى. والسفر يجمع همَّ الأقوياء، ويشتت قلوب الضعفاء، ويذهب أحوال أهل الابتداء. ثم إن من لم يصلح قلبه ولم يستقم حاله في الحضر، فإنه لا يصلح حاله ولا يستقيم قلبه في السفر. وأنشدوا لبعض السائحين في التغرب:

الفتُ التفرّد والغريبه * ففى كل يوم أطى تربه
 فيومٍ مقيمٍ على نعمة * ويومٍ مطلٌ على تكبّه
 ومما يُطيب نفسَ الغريد * ب حبيبٍ تطيب به الصُحبّه

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده فقال الثلاثة نفر. وقال إذا كنتم في سفرٍ ثلاثة فأمروا أحداكم. قال فكانوا يفعلون ذلك ويقولون ذاك أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك يُستحب.

وقد جاء في الخبر خير الأصحاب أربعة، والأسفار والنزه لا تطيب إلا في جماعة، وأقل الجماعة اثنان، والثلاثة والأربعة أفضل، والسياسة لا تحسن إلا على الانفراد والوحدة، فإن اتفق ثلاثة في سياحة بقلبٍ واحد، وهمُّ واحد، على حالٍ واحد، فهم كعبدٍ واحد، فهو حسنٌ وفيه

معاونة على البرِّ والتقوى. وقال الله عز وجل فيمن منعه النصرة وحرمه منه الصُّحبة «لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصبحون»، فمن نصره الله على نفسه فقد صحبه، ومن لم يصحبه سلط عليه نفسه وسخره لها. وجملة الأمر أن السفر عمل من الأعمال يحتاج إلى نية وإخلاص، فمنه فرض وهو ما هرب به من معصية، ومنه فضل وهو ما طلب به طاعة، ومنه مباح وهو ما ضرب به في تجارة، ومنه معصية وهو ما سعى به في فساد.

الفصل الثاني والأربعون

فيه كتاب حكم الإمام ووصف الإمامة والمأموم

فإن كان هذا المرید إماماً لحيه كان عليه أن يقوم بحُكم الإمامة حتى يتمها، فيستحق الإمام بأن يكون له مثل أجر مَنْ صَلَّى خلفه، بأن يكون داعياً إلى الله عز وجل، قائماً بين الله تعالى وبين عباده، هو وجهتهم وطريقتهم إليه. وفي الخبر إنما الإمام أمير، فإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا. وفي الحديث فإن تمّ فله ولهم، وأن نقص فعليه ولا عليهم. وفي الخبر أتمتكم وفدكم إلى الله عز وجل، فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم. وفي الخبر المشهور الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن. اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين. وفي الحديث ثلاثة لا تقبل لهم صلاة، وفي لفظ آخر لا تجاور صلاتهم رؤسهم: العبد الأبق، وامرأة زوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون.

وأول ما على الإمام من الشروط أن يكون مجتنباً للفسوق والكبائر، وغير مصرٍ على الصفائر، قارئاً لكتاب الله عز وجل، أو لما يُحسن منه بغير لحن ولا إحالة معنى، عالماً بفرائض الصلاة وسُننها، وما يُفسدها، وما يوجب السهو وما لا يوجبها منها. وإن حدثت عليه حادثة في الصلاة، أو ذكر أنه على غير وضوء، ودرع واتقى الله عز وجل، وخرج من صلاته وأخذ بيد أقرب الناس منه فاستخلفه في مقامه. وقد أصاب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، إمام الأمة، في الصلاة فخرج منها، وذلك أنه ذكر أنه كان جنباً فاغتسل، ثم رجع فدخل في الصلاة، فإن كانت الحادثة في الصلاة ففعل ذلك، وإن كان ذكر أنه دخل في الصلاة على غير طهارة خرج ولم يستخلف وابتدأ القوم صلاتهم. فليكن الإمام مأموناً على طهارته بإكمالها، مأموناً في صلاته بإقامتها، مخلصاً بالإمامة، يريد بها وجه الله تعالى وما عنده. ولا يحل له أن يأخذ على الصلاة أجراً، ولا على الأذان الذي هو طريق إليها. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبي العاص الثقفي فقال واتخذ مؤذناً لا يأخذ على الأذان أجراً، فهذا